حوارات من العراق القديم

الدكتورة سلسل محمد العاني
مركز احياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

المقدمة:

لا يكاد حقل من حقول النتاجات الفكرية في عصرنا الحاضر يخلو من أثر يمتد بجذوره إلى حضارة العراق القديم حيث كان لسكانه من السومريين بشكل خاص اليد الطولى في وضع اللبنة الأولى في اساسه.. فقد سبقوا غيرهم في التنبيه أو الأشارة الى جوانب كثيرة في الحياة غير تدبير المسكن والمأكل وتأمين النفس.. هذه الخفايا التي عدها البشر أمورا غامضة جالت بالتأكيد في ذهن كل شخص سواء كان إدراكه ضئيلاً أم واسعاً إلا إن الفرق يتجلى في أن الاشخاص ذوي المقدرة وضعوا أجوبة لهذه الأسئلة الشائكة، قد تكون صحيحة، وقد تكون خاطئة كلٌّ وفق إستعداده الذهني.. وربما سنفهم تفسيرات حكماء مابين النهرين إذا ما وضعنا نصب أعيننا طبيعة وقدم الفترة التي عاشوا فيها، وهي فترة، بلا شك، بداية نشوء الحضارة الانسانية.

لقد أمدونا بومضاتٍ مضيئة، رغم كونها خافتة أحياناً، ظلت تسير متزامنة مع ركب الحضارة الآخذة بالنمو والازدهار.. وما نقصده بالجوانب الغامضة التي أحاطت وما تزال تحيط بالانسان وظلت مشكلة فهمها البعض، والبعض الآخر ما يزال لا يجد تفسيراً، ولم يقتنع بالأجوبة التي وضعها غيره مثل: نشوء الكون، خلق الانسان، القدرة المسيّرة للكون، الموت، الحياة مابعد الموت وغيرها.. دارت هذه التساؤلات في ذهن الإنسان الأول، يحاور بشأنها نفسه خفية، في أغلب الأحيان، بسبب مساسها المقدس، ومن ثم على ما نعتقده، بدأ يحاور من حوله.. ومن خلال هذه الحوارات(الحواريات) أو الأسئلة والأجوبة بدأت وتطورت اللغة وأتسعت آفاقها في مرحلة لاحقة لتشمل كلمات عديدة، لا بل مختلفة، للمصطلح الواحد.

من هذا المنطلق نشأ الحوار من خلال التفسير البسيط لطبيعة الحياة بين عامة الناس.. أما الطرف الأكثر علماً ومعرفةً من الناس، فمن الطبيعي أن تكون أجوبتهم على هذه الاسئلة أكثر إقناعاً لمعاصريهم.. وقد أطلقت على هذه التفسيرات تسمياتٍ شتى، كالمعرفة، وسعة الاطلاع، والحكمة، وإذا ما تميزت بطابع فكري أصيل سميت فيما بعد، فلسفة.

هل الأدب فلسفة أم العكس؟

زودتنا حضارة وادي الرافدين بعددٍ هائلٍ من الألواح الطينية المدونة، مقارنة مع مراكز حضارية أخرى في العالم.. فقد ظهرت كتابات ذات مضامين متعددة، في الوقت الذي كان فيه معاصريهم في بقاع الأرض لا يزالون يتداولون القصص الملحمية شفاهاً.[١] إذ عرفوا القصص والملاحم والأساطير، ودونوا الصلوات والأدعية والترانيم، و كتبوا الأمثال والحكم والأقوال، ونظموا قصائد الغزل والمناحات، وصنفت كلها بأنها على قدر كبير من الأهمية، كونها تعكس الجوانب الدينية والأدبية والإجتماعية للمجتمع العراقي.. إضافة الى إحتوائها مضامين ناقشت أموراً فلسفية وفكرية، كالحياة والموت، وخلق الكون والإنسان، والخير والشر، والثواب والعقاب، وهي أمور سبقوا فيها غيرهم من الشعوب القديمة.[٢]

فأدت الاساطير والخرافات الى نشوء التفكير الفلسفي،[٣] فالأسطورة والفلسفة هما نتاج فكري بحت، كلاهما يبحثان في سلوك وأخلاق وطبائع بني البشر.. يضاف إلى ذلك أن الأسطورة والسحر والفلسفة تتداخل جميعاً لتكون نمطاً من التفكير أو الذهنية، ليس من الضروري أن تتفق بل أنها تتضارب أحياناً، وسمي بالذهنية الالتباسية مقابل الذهنية العلمية. [٤]

من جانبٍ آخر، فأن الفلسفة، منذ عهد أفلاطون وحتى عصرنا الحاضر، لها صلة وثيقة بالشعر، ذلك إن حكماء البشرية فطنوا منذ القدم إلى أن الحقيقة لا تظهرواضحة بين السطور، وانها كثيراً ما تتستر بين كلمات الاساطير والخرافات والرموز والأقاصيص والحكم الشعبية... "ومهما حاول الفيلسوف ان يحكم عقله في كل شيء، ومهما خيل إليه أن فلسفته هي نظر عقلي خالص، بل مهما أراد أن يجعل من فلسفته علماً دقيقاً محكماً فأنه لابد أن يجد نفسه محمولاً على أجنحة الخيال، إلى عالم تختلط فيه الحقيقة بالشعر ويمتزج الواقع بالخيال". (٥)

إذن ماعلينا إلا ان نُسلم بأن كتابة القصص والملاحم وغيرها من النصوص القديمة رغم انها صنفت من ضمن أبواب الأدب لكنها، بالتأكيد لا تخلو من مناح فلسفية، كما أن الأدب عُرف قبل الفلسفة، وان الفلسفة التي تقوم على العقل ترتكز كذلك على الخيال الذي هو ميزة أساسية من مميزات الأدب.

سميت الحكمة عند البابليين بـ (némequ) ، وتعني المهارة في العبادة والمعرفة بالسحر، كما نعتوا الحكيم نعوتاً مثل: enqu müdû، hassu، etpesu (معرفة/ حكمة) ، والرجل الحكيم هو المعلم(٦).

ولتسمية الحكيم مدلولاتها الفكرية والاجتماعية على حد سواء، فهي ليست تسمية تطلق على الرجل المتعلم فحسب، بل تستخدم لنعت من له دراية بعلومٍ شتى، ولمن له أجوبة مقبولة لتساؤلات كثيرة، الدينية منها بشكلٍ خاص، نظراً لشمول هذا الموضوع جوانب معقدة يصعب فهمها من لدن الانسان العادي، كما أن الحكيم يتمتع بأفق ذهني واسع متشعب يُمكنه من استيعاب كل الاسئلة التي تطرح عليه من قبل الناس، أو تلك الي تدور في رأسه.. والامثلة عديدة لحكماء العراق القديم تركوها مسجلة في الملاحم

والاساطير حول نشوء الكون وخلق الانسان وغيرها من الأمور التي نعدها اليوم مواضيع فلسفية رغم تداخلها مع الاديان، سواء كانت هذه الاديان سماوية أو موضوعية من قبل الانسان.

ان الحيرة التي انتابت الانسان بشأن مايقع عليه، عُرف في عهد سلالة أو الثالثة(٢٠٠٤-٢١٢٠ق. م/القرن الواحد والعشرين ق. م.)، ذلك أن الشخص المتظلم يظل جاهلاً بالأثم الذي ارتكبه لأن تنزل به الآلهة العقاب.. ومع ذلك فان الترانيم السومرية أكدت على تحكم الآلهة بمصير البشر.. وإذا ما أخذنا هذان الأمران معاً فأن الكهنة في الفترة الكيشية (١٥٩٥- ١١٦٢ ق. م) وأسلافهم من قبل قد قالوا بمبدأ أن الانسان ليس لديه حدس أو بديهية لمفهوم الخطيئة وأن الآلهة وحدها بأمكانها إظهار الخطيئة، وعليه فأن خطايا الجهل كانت معروفة، واوضحت ان الانسان الذي لا وعي له بالإثم هو مع ذلك يكون مذنباً أمام الآلهة وعليه أن يعاني.. ويتضح ذلك في الفقرات التالية [٧]

- ان البشرية صماء ولا تعرف شيئاً.
- ما مدى لديه من معرفة على أية حال؟. وهنا يقصد الانسان.
- انه لا يعرف ما إذا عمل صالحاً أو طالحاً.
- أين الرجل الحكيم الذي لم يأثم ويرتكب أمراً بغيضاً؟
- أين الذي كبح زمام نفسه ولم يتدنس؟
- هل هنالك من كبح زمام نفسه ولم يعمل أمراً بغيضاً؟

لقد ترك لنا سكان وادي الرافدين هذه المفاهيم معروفة ضمن ما اتفق على تسميتها بالأعمال الأدبية، جاءت بشكل حوارات بين أطراف تباينت منازلهم الإجتماعية.

فهناك على سبيل المثال لا الحصر محاورة الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٤- ٦٨١ق. م) مع نفسه بشأن خفايا مقتل أبيه الملك سرجون، ومحاورة بين إله وملك، وبين صديقين، وبين سيد وعبد، بل اتسع نطاق ميدان المحاورات ليشمل مناظرة أو حواراً بين ضربين من النبات أو صنفين من الحيوان.

سمي هذا الضرب من النصوص بالأدب وتحديداُ بأدب الحوار، وقد فرق لغويو العرب بين المصطلحات المستخدمة فيه، وهي متعددة لا يمكن لنا تناولها جميعاً وسنختار نوعين منها لنلقي الضوء على تعريفهما نظراً لانطباقهما على النصوص التي أخترنا البحث فيها.

الحوار والجدل:

"المحاورة هي المجاوبة، والتحاور التجاوب، فما أحار اليَّ جواباً وما رجَّع إليَّ حويراً ولا حويرة ولا محاورة ولا حواراً، أي ما ردَّ جواباً.. وأستحاره أي استنطقه.. وقيل أراد به الخيبة والاخفاق.. وأصل الحوار الرجوع الى النقص".[٨] والمحاورة والمجاوبة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. [٩] كما عرف (المعجم االفلسفي) الحوار بأنه: لا بد في التحاور والتجاوب من وجود متكلمٍ ومخاطبٍ، ولا بد فيه كذلك من تبادل الكلام ومراجعته.. والهدف من الحوار توليد الافكار الجديدة في ذهن المتكلم، لا الاقتصار على الافكار القديمة، وفي هذا التجاوب توضيح للمعاني وإغناء للمفاهيم يقودان الى تقدم الفكر.[١٠]

وعرفت (دائرة المعارف البريطانية) الحوار بمفهومه الأدبي، بأنه شرح نظم بدقة بهيئة محادثة ابتكارية لمواقفٍ فلسفية و فكرية متباينة.. ونسبت أقدم حوار الى مسرحية قديمة من سيسيليا كتبت بشكل نثر موزون، كتبها سوفرون في بداية القرن الخامس ق. م... ورغم ان النص لم يصل إلينا إلا ان جوهره تضمنه مقطع شعري لمسرحية قديمة أخرى من القرن الثالث ق. م. وضعها هيروداس (هيروناس)، وهو من الاسكندرية، انطوت على مشاهد مختصرة مستقاة من الحياة اليومية. ولا بد هنا من الاشارة الى ان افلاطون رغم علمه بنص سوفرون واعجابه به إلا أن شكل المحاورات الفلسفية التي كتبها بحدود عام (٤٠٠ ق. م) كانت أصيلة وتعد بمثابة خلق ابداعي خاص به.[١١]

"والحوار إذا ماكان تجاوباً بين الاضداد كالمجرد والمستخلص والمعقول والمحسوس والحب والواجب سمي جدلاً".[١٢] والجدل هو "محركة اللدد في الخصومة والقدرة عليها، ومنها أخذ الجدل المنطقي الذي هو القياس المؤلف من المشهودات أو المسلمات.. والغرض منه الزام الخصم، وافهام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. والجدل المخاصمة والخصام، والمفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا احكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه وقيل أصله الصراع". [١٣]

إذن الحوار هو الكلام بين طرفين بشأن قضية ما، وقد يكون هناك تناقض في وجهات النظر وهذا مايضيف الى الموضوع غنى ويجعله متشعباً ليشمل قضايا أخرى وهو ليس من الضروري أن يحصل فيه إقناع للجانب الثاني.. أما الجدال فينبغي أن يتجلى فيه الاقناع والرضوخ للطرف الاخر، أي سيادة رأي على رأي آخر.. وعلى المقتنع التحلي بالشجاعة

واتساع الأفق تمكناه من التخلي والتنازل عن افكاره ومبادئه، ولا يخلو من أن يلقبه البعض بضعف الشخصية وإنعدام الإرادة، فالحقيقة أنه ليس من السهل على المرء تغيير مواقفه والاستسلام وتبني افكار الغير.. ونعرّف الجدال، ببضع كلمات، انه منازعة أو خصومة فكرية، سلاحها الكلمات المهذبة، يستخدم فيها العقل والعبارات بدل الأيدي والكلمات الجارحة.

المُعذب والصديق:

هو جدالٍ ديني– اجتماعي بين صديقين وقع الظلم على أحدهما، فيما راح الثاني يهون الأمر عليه، وقد أتسم باختلاف وجهات النظر بينهما... إتصف النص بكونه وثيقة للتاريخ الاجتماعي.. فالصديق الذي له اعتقاد ديني راسخ يبدو وقد أنهك نفسه بالقول لصديقه التعيس ان التقوى تقود الى النجاح في الحياة.. أما الحيف الذي واجهه في حياته فقد ألم به نتيجة آثام ارتكبها.. والملاحظ ان هذه الآثام ظلت مستترة في مضمون الحوار ولم يكشف عنها. [١٤].. المشكلة الأخرى التي أثيرت هي التساؤل حول سبب اضطهاد بعض الناس لغيرهم دون مبرر.. كما أحتوى على تعنيف الصديق لصديقه لانتقاصه من الآلهة وقنوطه مذكراً إياه ان ما جابهه من مظالم ليس من ترتيب البشر بل هي أمور مقدسة من صنع الآلهة لأجل فائدة الإنسان وان انكار هذه الحقيقة هو أثم كبير.[١٥]

يتألف النص من مقاطع شعرية بلغ عددها(٧٢)، خصص لكل متكلم(١١) سطراً.. فيما فقدت بقية المقاطع الثمانية، كما دون اسم المؤلف حيث يقول: "أنا، شاكل– كينام– يوبيب، كاهن التعاويذ، عابد الإله والملك".[١٦]

وردتنا عدد من النصوص من الحقبة الآشورية والبابلية واشارات من سبار تؤكد ان هذا الضرب من التأليف لاقى إهتماما من لدن المتعلمين الذين عاشوا في فترات متأخرة. ومن أقدم النصوص التي وصلتنا تلك التي تعود ملكيتها لمكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال (القرن السابع ق.م).. أما النص الذي نحن بصدده فقد وضع حوالي (١٠٠٠ق. م). [١٧] ولا يمكن ارجاعه الى فترة ما قبل العصر الكشي(دام حكم هذه السلالة حوالي أربعة قرون ١٥٩٥-١١٦٢ ق.م)، فأسم الكاهن أو المؤلف أسم شائع في هذه الفترة وهذا يعطي احتمالاً بانه يعيش بعد عام ٨٠٠ ق. م. إضافة الى ان اللغة التي استخدمت تعكس تأثيرات من الفترة البابلية الوسطى والمتأخرة. [١٨]

تجدر الملاحظة إن ما أشرنا إليه(.....) يعني الكلمات إما مفقودة أو تالفة أو لا يمكن قراءتها.

جاء في النص بين الصديقين: [١٩]

*** المُعذبْ:**

- أيها العاقل ... أَقْدِمْ ، دعني أقول لك.
- ..... دعني أُعلِمُكَ..
- ..... أنت،
- انا... المُعاناة، سوف لن تنقطع لتبجيلك.
- أين الرجل الحكيم في مقدرتك العقلية؟
- أين هو العالِمْ الذي باستطاعته منافستك؟
- أين هو الناصح الذي باستطاعته رواية حزني له؟
- لقد انتهيت، الكربُ حلَّ بي.- كنت الطفل الأصغر، أخذ القدر أبي،
- أمي التي حملتني تركت إلى أرض اللاعودة.
- أبي وأمي تركاني بلا حامي..

*** الصديق:**

- الصديق المحترم، ما تقوله كئيب.
- تركت عقلك يكمن على الشر، صاحبي العزيز.
- جعلت من تمييزك للأمور كتمييز الحمقى،
- أحلتَ إشراقة وجهك الى عبوس.
- إن ابائنا، في الحقيقة، قد استسلموا وذهبوا الى طريق الموت.
- في مقولة قديمة "يعبرون نهر خُبّر".
- إذا ما أخذت البشرية بنظر الاعتبار ككل،
- ..... ليس... جعل من الابن البكر الفقير ثريا.
- فمن الذي يُؤثرُ الرجل البدين الثري؟
- إن الذي يخدم إلهه له ملاكٌ يحميه،
- الرجل المتواضع الذي يخاف إلهتهُ يجمع ثروة.

*** المعذب:**

- صديقي، عقلك كتهر ينبوعه لا ينضب.
- غزارة البحر الذي لا يعرف النقصان،
- سأطرحُ عليك سؤالاً، إصغِ لما أقوله.
- انتبه للحظة، إسمع كلماتي.
- ان جسدي حُطام، الهزال جعلني مكفهراً،
- نجاحي اختفى، استقراري مضى.
- قوتي ضَعُفَتْ، رخائي انتهى،
- النواح والحزن شوها قسماتي.
- الذرة في حقولي، أبعد ما تكون لإشباعي.
- نبيذي، حياة البشرية، قليل جداً لإشباعي.
- هل يمكن ضمان حياة النعيم؟ اتمنى معرفة ذلك!

- **الصديق:**

- ان ما أقوله هو أمر مُكبح....
- لكنكَ..... عقلك، مثل رجل مجنون.
- لقد جعلت من..... مشتتاً وغير منطقي،
- لقد حولت اختيارك..... أعمى.
- أما بالنسبة الى رغبتك الملحة التي لا تنتهي الى.....
- الطمأنينة السابقة ..... من خلال الصلوات.
- مرضاة الآلهة تُستردُ عن طريق.....
- ..... الذي لاسند له يستحق الرثاء.....
- يُنشد دائماً المعيار الصحيح للعدالة.
- ..... العظيم، سيبدي الشفقة،
- ..... ستضمن الرحمة.

*** المُعذب:**

- أنا انحني لك، رفيقي، أنا أدرك حكمتك،
- ..... تعبير كلماتك.
- ..... أَقدِمْ، دعني أقول لك شيئاً.
- الاخدر، الحمار الوحشي، الذي يملى نفسه...
- هل أبدى أهتمامه لمانح الوحي الالهي المقدس؟
- الأسد المتوحش الذي يفترس اللحم الذي يختاره،
- هل جلب عطيته من الطحين ليرضي غضب الآلهة؟
- .... المُحدث الثراء الذي ضاعف من ثروته،
- هل وزن الذهب الثمين لاجل الآلهة مامي،
- هل أنا توقفت عن تقديم العطايا؟ لقد صليت لالهي،
- لقد تلفظت بالبركة على قرابين الآلهة التي أقدمها بأنتظام،....

• الصديق:

- ايها النخلة، شجرة الغنى، أخي الغالي،
- الممنوح الحكمة كلها، جوهرة الذهب.
- انك راسخ كالأرض، لكن قصد الآلهة عيد.
- انظر إلى الحمار الوحشي الرائع في السهل،
- السهم سيطارد الجارح الذي يطأ الحقول.
- أَقدِمْ، تأمل الأسد الذي ذكرته، عدو قطيع الماشية.
- بسبب الجريمة التي ارتكبها فان الوجرة بأنتظاره.
- الغني المحدث الثراء الذي يكدس البضائع،
- سيُحرقُ على الوتد، من قبل الملك، قبل أوانه.
- هل تريد المضي بالطريقة التي مضى بها هؤلاء؟
- أم تفضل التماس المكافأة الدائمة من إلهك؟

*** المُعذب:**

- ان عقلك ريح شمالية، نسيم عليل للناس.
- الصديق المختار، ان نصيحتك رائعة.
- كلمة واحدة فقط أضعها امامك
- ان هؤلاء الذين يهملون الاله يمضون الى طريق الرفاهية،
- في حين ان الذين يُصلون للآلهة يُفقرون ويُسلبون.
- في صباي ناشدت ارادة الاله،
- بالسجود والصلاة اتبعت إلهتي.
- لكني تحملت عمل السخرة العديم الفائدة كالعبد،
- وبدلا قضى إلهي بالحرمان من الثروة،
- مشلولة رفعتي، الجنون غمرني.
- الوغد يُعز، ولكني جُعلتُ في الحضيض.

-

•الصديق:

- رفيقي المعول عليه، حامل المعرفة، أفكارك خاطئة.
- لقد تخليت عن الصواب وكفرت بمقاصد إلهك.
- في عقلك دافع للاستخفاف بالقدر الالهي.
- ..... الاحكام المعلنة لآلهتك.
- مقاصد الآلهة مثل مركز السماء،
- قرارات الآلهة ليست....
- لأجل الفهم كما ينبغي....
- أفكارهم..... للبشرية،
- لادراك طريق الآلهة...
- تبريرهم ليس ببعيد....

(نقص في اللوح من السطر٨٨- ١٢٤)

•الصديق:

- أنا.....
- عملت ابيض...
- اهتممت بـ ....
- اعتنيت بالصغار....
- جعلت الناس مرفهين.....
- جمعتُ.....
- التفتُ للاله....
- طلبت ماهو ضروري.....

•المعذب:

- سأترك منزلي....
- سوف لا أرغب بأية ممتلكات.....
- سأتجاهل انظمة إلهي وسأدوس على طقوسه،
- سأذبح عجلاً و..... طعام،
- سأسلك الطريق وأذهب الى أماكن بعيدة
- سأحفر بئراً وأطلق فيضاناً،
- مثل اللصوص سأطوف البلد الواسع.
- سأذهب من بيت الى بيت لسد الجوع،
- جائعاً سوف أمشي هنا وهناك، وأجول الشوارع.
- مثل المتسول سوف..... داخل.....
- النعيمُ بعيدٌ جداً.

*** الصديق:**

- صديقي، عقلك كامن على.....
- الفعاليات البشرية التي لا تريدها.....
- في عقلك يوجد....
- رشدك تركك.....

(نقص في اللوح من السطر ١٤٨-١٥٨)

•المعذب:

- الابنة تتكلم.... مع أمها،
- الصياد الذي نصب شبكته وقع.
- آخذاً كل شيء، أيهما.... حظ؟
- المخلوقات المتوحشة العديدة التي....
- مَنْ من بينهم له.....؟
- فهل أنشدُ ابناً وابنة....

- أفلا افقد ما وجدته....

*** الصديق:**

- ايها المتواضع والخاضع....
- ارادتك ستخضع دوماً.... ثمين.
- ..... عقلك.....

(نقص من اللوح من السطر ١٦٩-١٨٠)

*** المُعذب:**

- ولي العهد يرتدي ملابس.....،
- ابن المعدم والعاري يرتدي ملابس.....
- حارس الملت ..... الذهب،
- في حين ان الذي يكيل ذهبه اللامع بمكيال الحبوب يحمل....
- النباتي يلتهم مأدبة النبيل،
- في حين ابن الوجيه والثري يعيش على الخرنوب.
- مالك الثروة يهوي .... بعيد جداً

(نقص في اللوح من السطر ١٨٨-١٩٨)

*** المعذب:**

- .... حكمة.
- انت احتويت الحكمة كلها، انت تنصح الناس.
- (نقص في اللوح من السطر ٢٠١-٢١١)

*** الصديق:**

– لقد جعلت من عقلك الراجح ضالاً.
– ..... لقد طردت الحكمة،
– لقد ازدريت اللياقة، لقد دنست القدر الالهي.
– من يضع على رأسه تاج الكاهن، يختلف كثيراً عن الذي يحمل سلة الملاط على رأسه.
– ..... جعل من الشخص متنفذاً .
– ..... يُسمى بالعالِمْ .
– ..... يُعتنى به ويحصل على رغباته.
– ..... اتبع طريق الإله، وتقيد بطقوسه،
– ..... يُعد غير صالح.

*** المُعذب:**

– ..... الأوغاد،
– ..... كلهم يخدعون،
– ..... يكدسون البضائع،
(نقص في اللوح من السطر ٢٢٤–٢٣٤)

*** الصديق:**

– بالنسبة الى الوغد الذي تتطلع إلى إستمالته،
– ..... ه سرعان ماتتلاشى
– الملحد يخدع من له ثروة،
– سيلاحقه سلاح الذين يُتجأرون بالموت،
– مالم تلتمس إرادة الإله، فماهو حظك؟
– ذلك الذي يتحمل نير إلهه سوف لن يعوزه الطعام، رغم كونه ضئيلاً،
– التمس نَفَسَ الإله الرحيمة،

– مافقدته خلال سنه ستعوضه في لحظة.

*** المُعذب:**

– لقد تلفتُ حول المجتمع، لكن الشواهد كانت على العكس.
– الاله لايمنع طريق الشيطان،
– الأب يجرٌ قارباً على طول القناة،
– في حين ان الابن البكر مستلقي على السرير،
– الابن البكر يتعقب طريقه كالأسد،
– الابن الثاني سعيد بكونه سائق بغل،
– الوريث يتشامخ على طول الطريق متنمراً،
– الابن الأصغر سيعطي طعاماً للمعوز،
– ماذا إستفدت حين إنحنيت لالهي؟
– عليَّ الانحناء للقليل القيمة الذي يلقاني،
– حثالة البشرية، كالموسر والثري، يعاملونني بإزدراء.

*** الصديق:**

– ايها العاقل، ايها العالِمْ، الذي يبرع بالمعرفة،
– بقنوطك تكفر بالاله،
– العقل المقدس، مثل مركز السموات، بعيد،
– معرفته صعبة، عامة الناس لاتعرفه
– من بين جميع المخلوقات الذين كونهم أرورو
– الاول في الذرية بشكل عام... في حالة البقرة، فإن العجل الاول يكون واهناً،
– والذرية التالية أكبر حجماً منه مرتين،
– يولد الطفل الاول ضعيفاً،
– لكن الثاني يسمى بالمحارب البطل،

– قد يدرك الرجل ماهي مشيئة الاله، لكن الناس لا تعرفها،

*** المُعذب:**

– انتبه، صديقي، انهم أفكاري،
– تتبع التعابير المختارة لكلماتي،
– الناسُ تمجد كلمة الرجل القوي الذي إعتاد على القتل،
– لكنها تضع في الحضيض، الذي بلا قوة ولم يعمل سوءاً.
– انهم يعززون الشرير الذي جريمته .....،
– مع ذلك يضطهدون الرجل الأمين الذي يتبع مشيئة إلهه،
– يملئون مخزن الظالم بالذهب،
– لكنهم يُفرغون مخزن طعام الفقير من مؤنته،
– يسندون القوي، الذي .... أثما،
– لكنهم يفتكون بالضعيف، ويبعدون الذي لاقوه له،
– وبالنسبة لي، الفقير، فأن المُحدث الثراء يلاحقني،
–

*** الصديق :**

– نارو ملك الآلهة . الذي خلق البشرية،
– وزوكار الجليل، الذي استخرج طينتهم،
– الربة مامي، الملكة التي شكلتهم،
– قدموا كلاماً خاطئاً للجنس البشري،
– منحوهم وللأبد الأكاذيب وليس الحقيقة،
– يتحدثون بإجلال عن الرجل الثري،
– "انه ملك"، يقولون، "الثروة تسير بجانبه،
– لكنهم يؤذون الرجل الفقير كاللص،
– يفترون عليه بغير حساب ويكيدون لقتله،

- يجعلونه يقاسي كل المصائب كالمجرم، لأنه بلاسند ،
- وبشكل مروع يوصلوه الى نهايته، ويطفئوه كالشعلة.

*** المُعذب:**

- انت شفوق صديقي، لقد لاحظت حزني،
- ساعدني، انظر الى أساي، ادركهُ .
- أنا رغم اني متواضع، حكيم ومتضرع،
- لم أرى مساعدة وتخفيفاً للحظة واحدة،
- لقد مشيت في ميدان مدينتي دون أن أتطفل،
- صوتي لم يكن مرتفعاً، كلامي ظل منخفضاً.
- لم أرفع رأسي، أنظر نحو الأرض،
- لم أتعبد حتى كعبد بصحبة رفاقي،
- فليساعدني الاله الذي نبذني،
- فلترحمني الآلهة التي تخلت عني
- فالراعي شمش يقود الناس كالاله.

يشكو المعذب الغارق بالخيبة والقنوط، ظلم الاله والمجتمع على حد سواء، اذ بدت شكواه متشعبة إبتداها بحزنه لفقدان والديه وهو لم يشب عن الطوق بعد وتركه وحيداً يجابه الحياة بلاسند، والثانية تخلي الآلهة عنه لسبب ما، رغم عبادته لها بإنتظام وتقديم القرابين بلا إنقطاع، كما يقول، والشكوى الثالثة كانت حول إضطهاد أخيه الأكبر الذي وصفه بالواسع والمحدث الثراء.

يعطي المعذب إنطباعاً بحقد دفين تجاه أخيه المالك لكل شيء في حين ظل هو معدماً لايملك أي شيء، وقد عرفنا من خلال بعض السطور أنه، أي المعذب كانت حياته أفضل مما هي عليه حيث يملك حقلاً للذرة

ويعمل سائقاً لبغل. كان حانقاً على ذوي النعمة ولم يسلم من ذلك حتى ولي عهد بلاده الذي قال عنه أنه كان يرتدي أفخر أنواع اللباس، وان لم نستطع تحديد نوعها بسب فقدان الكلمات من اللوح.

لقد عكس النص من خلال هذه الشكاوى تناقضات المجتمع، فليست هناك، في نظر المعذب عدالة إلهية تجزي الطيب وتعاقب الشرير، كما ان العدالة الإجتماعية مفقودة فالأثرياء يكدسون بضائعهم ليؤذوا الناس، لكن الناس تحترمهم لا لشيء إلا لأموالهم، والقتلة الأوغاد يسيئون للناس لكنهم يحظون بكل إحترام .

اكتفت أجوبة الصديق الناصح بتطييب خاطره كما في قوله بأن منحه الاله رغم كونها قليلة الا أنها لاتنقطع، وان الثري الذي يكدس البضائع سيؤول مصيره إلى الحرق، وان الشرير لابد وان يلقى جزاءه العادل، وتنتهي النصائح كلها لتصب في نصيحة واحدة هي الرجوع إلى طريق الصواب المتمثل بالعودة إلى عبادة إلهه وطلب شفاعته ومساعدته.

كما نصحه بالعيش ضمن نطاق مجتمعه بعد أن هدده المعذب بأنه سيترك عمله ويتحول إلى متسولٍ يجوب البيوت، ولا يتزوج بعد أن وجد في المجتمع ان الابنة توجه كلاماً جارحاً لأمها.

يلاحظ في بداية النص ان شكوى المعذب اقتصرت على حرمانه من والديه في حين شمل جواب الناصح قولاً عن كراهية الناس للأثرياء. ويلاحظ كذلك أن الناصح قد أسبغ على نفسه كلمات مديح رنانة، بطريق غير مباشر، جاءت على لسان المعذب، من ذلك: الرجل الحكيم، العاقل، ذو عقل كالنهر ينبوعه لا ينضب، أنحني لك، أدرك حكمتك وغيرها.

لغة المعذب جميلة للغاية واتخذت شكل طابع مسرحي كقوله: أَقدِمْ، أصغِ لما أقول، انتبه للحظة، اسمع كلامي، كلمة واحدة فقط أضعها

أمامك، افهم أفكاري، تتبع التعابير المختارة لكلماتي، لقد لاحظت حزني، انظر إلى أساي... بدا المعذب أكثر فصاحة من الناصح وبشكل خاص الفقرة التي تضمنت معاني بليغة وجاء فيها:

"ان جسدي حُطام، الهزال جعلني مكفهراً،

نجاحي اختفى، استقراري مضى.

قوتي ضَعُفَتْ، رخائي انتهى،

النواح والحزن شوها قسماتي".

ولعل من أشد ما قاله تهجمه على آلهته واختراقه لمقدساته بقوله:

"الاله لايمنع طريق الشيطان

(سوف) سأتجاهل انظمة إلهي وسأدوس على طقوسه"

من خلال مراجعة المقاطع الأخيرة للنص يستشف ان المعذب لم يقتنع تماماً بما قاله الصديق الناصح يقوله:

"فليساعدني الاله الذي نبذني،

فلترحمني الآلهة التي تخلت عني"

هو قول أقرب للاستسلام، ولذلك بأستطاعتنا القول ان المحاورة تُحتسب لصالح المعذب.

الاله والملك:

حوار هادئ بصيغة دينية ملكية دارت بين الاله نابو والملك الآشوري آشور بانيبال (٦٦٨- ٦٢٧ ق. م/ القرن السابع ق. م) بدأها الملك: [٢٠]

- أنا أواظب على اطرائك، نابو، في مجمع الآلهة العظام، فعسى الحشد الذين يتمنون الشر لي لا يستحوذون على حياتي.

في معبد ملكة نينوى، تقربت اليك، بطلاً بين اخوته الآلهة، انك موضع ثقة آشور بانيبال دائماً وأبداً.. منذ كنت طفلاً صغيراً، ارتميت عند قدمي نابو، فلا تتركني لمجمع الذين يتمنون الشر لي نابو.

رد الاله نابو بقوله:

- انتبه يا آشور بانيبال، أنا نابو حتى نهاية الزمان/ ان قدميك لن توهنا، ولن ترتعش كفيك، ولن تخاف شفتيك عند الصلاة لي، ولن يتلعثم لسانك على شفتيك، لأني سأمنحك الكلام العذب، وسأرفع رأسك، وأجعل جسمك مستقيماً في بيت أما شماش.

ويكمل نابو: ذلك فمك العذب الذي يواظب على الصلاة لأوركيتو، قوامك الذي خلقتهُ، يصلي لي بإستمرار في أما شماش.

قدرُك الذي أوجدته أنا يصلي لي بإستمرار مثل: "أجلب الامان لأكشنكلما".

روحك تصلي لي بإستمرار.."أطلْ حياة آشور بانيبال".

(بين هذين الحوارين يذكر النص وصف الملك وهو يؤدي طقوس الطاعة للاله جاء فيه):

آشور بانيبال جاثٍ على ركبتيه يصلي لسيده نابو بإستمرار.

- أرجوك نابو، لا تتخلى عني، حياتي كتبت قبلك، أودعت روحي في حضن موليسو.

أرجوك يانابو، القوي لا تتركني بين هؤلاء الذين يتمنون الشر لي.

أجاب إله الحلم من بين جمع سيده نابو:

- لا تخف آشور بانيبال، سأمنحك الحياة المديدة، سأودع النسائم العذبة في روحك، سيباركك فمي العذب دوماً في مجمع الآلهة العظام.

فتح آشور بانيبال يده ليصلي صلاة متواصلة لسيده نابو:

- عسى ان لا يلحق الخزي بالذي أمسك بقدمي ملكة نينوى، عند جمع الآلهة العظام، عسى ان لا يلحق الخزي بالذي جلس قرب أوركيتو عند جمع هؤلاء الذين يتمنون الشر له.

- لا تتركني بين جمع الذين يتمنون الشر لي.. يانابو لا تترك حياتي لجمع اعدائي.
- كُنتَ طفلاً آشور بانيبال حين تركتك مع ملكة نينوى، كنت رضيعاً آشور بانيبال حين جلست في حضن ملكة نينوى، كانت حلمها الأربع في فمك، ترضع من اثنتين، وينثر الحليب على وجهك من اثنتين.

الذين يتمنون الشر لك آشور بانيبال سيطيرون مثل اللُقاحْ على سطح الماء، سيسحقون عند قدميك مثل حشرات بوربلانو في الربيع.

انت ياآشور بانيبال ستقف أمام الآلهة العظام وستُبجل نابو.

الحوار هنا من وحي الخيال بطبيعة الحال، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ان الاله نابو ليس له وجود أو انه في عالم الغيب.

للملكية منزلة مقدسة عند العراقيين القدماء، إذ تذكر اسطورة سومرية ان العناصر التسعة الأولى من بين مائة عنصر من عناصر التحضر والمدنية، كان من بينها القيادة والتاج والصولجان واشارات المُلكْ، الأمر الذي يؤكد أهمية الملكية عند السومريين حيث عدوها أساساً لشوء المدنية.. وفي نص يعود إلى فترة لاحقة، يصف ناسخ اللوح أعداء الدولة في الشمال والشرق بأنهم: "لا يعرفون بيوتاً وليس لهم ملوك"، فالآلة عندهم تختار الملك بنفسها وتقدم له وظائفه.[٢١] من جانبٍ ثانٍ أعتبر كثير من الملوك أنفسهم أبناءاً للآلهة فيذكر جوديه حاكم مدينة لجش(القرن الثاني والعشرون ق. م) أنه ابن الآلهتين نينا ونينسون، وأورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة الذي حكم بين(٢٠٩٦-٢١١٣ق. م) قال انه ابن الآلهة نينسون ويشير الملك الآشوري سنحاريب(٦٨١-٧٠٤ق. م) بأن: "الربة ملكة الآلهة قد اختارتني للمُلك عندما كنت في رحم أمي". ويقول آشور بانيبال(٦٦٨-٦٢٧ق. م) ان امه هي الآلهة ننليل(زوجة الإله آشور). [٢٢]

نستدل من هذه المقدمة ما للحوار الذي نحن بصدده من قيمة دينية واجتماعية إضافة لتأكيده على أهمية الملك بالنسبة لشعبه، وقد كتب بصيغة يُفهم منها ان هناك أموراً متفق عليها سلفاص بين الطرفين.. فآشور بانيبال يقدم إلتماساص الى إلهه سعياً للتقرب منه وطلب رضاه، مؤكداً له مواظبته على تقديسه منذ طفولته، ولم يدخر الاله نابو وسعاً في ايضاح موقفه تجاهه بحمايته من مجمع الشر الذي يكيد له.

تعكس الحوارية للقاريء في هذا العصر وكأنها كتبت ليس لتثبيت المُلكْ من قبل الإله أو تقديم فروض الطاعة بالنسبة للملك بل رسالة صريحة موجهة للشعب وأعداء الملك غايتها إضفاء طابع القدسية على الحاكم وأن اختياره جاء بتفويض إلهي... لقد كان بمقدور مؤلف النص كتابته بشكل نثر مسترسل يتضمن المعاني نفسها، لكن بلاغته ومقدرته الفذة في التحكم بلغت دفعته الى تدوينها بهيئة حوار لتوقع في نفس القاريء أثراً بليغاً.

السيد والعبد:

الكلام هنا يدور بين سيد وعبده، ويرجع هذا الضرب من الأدب إلى ١٠٠٠ق. م. وقد اختلف الباحثون في تحديد أهدافه فعده البعض أنه شكل من أشكال السخرية، أو نقد للقيم الإجتماعية والدينية السائدة آنذاك، أو أنه يعكس مفهومي الخير والشر. (٢٣)

اصطبغت النصوص التي دارت بين السيد والعبد بصبغة اجتماعية واضحة غايتها التأديب وتعليم العبد طاعة سيده فيما يقوله، هذا رغم انها على الأكثر سوف لن تكون في متناول يد العبد فهو اما غير متعلم أو ان تعليمه محدود، كما انها تحث الطرف الرئيس بالتزام القوة والحزم في المعاملة وتأمر الطرف المرؤوس بالخضوع وتنفيذ الأوامر.

النص الأول:[٢٤]

- ايها العبد، أصغ إليَّ.
- نعم، ايها السيد، نعم.
- سأعمل اماراً معيباً.
- اعمل، اعمل، مالم تعمل شيئاً معيباً، فمن اين ستأتي ملابسك؟ ومن سيعطيك شيئاً يملىء كرشك؟
- كلا ايها العبد، سوف لن أعمل اي شيء مُعيب.
- الرجل الذي يعمل أمراً معيباً إما يُقتل أو يُجلد، وأما تُقلع عيناه، أو يؤسر، أو يُسجن.

النص الثاني:[٢٥]

- ايها العبد، أصغ إليَّ.
- نعم، ايها السيد، نعم.
- سأتصل بأمرأة.
- إتصل، سيدي، إتصل. الرجل الذي يتصل بأمرأة ينسى الحزن والهم.
- كلا ايها العبد، سوف لا أتصل بأمرأة.
- لا تتصل، ايها السيد، لا تتصل، المرأة شرِكْ، حفرة، خندق، المرأة خنجر حديدي حاد يقطع حلقوم الرجل.

النص الثالث: [٢٦]

- ايها العبد، أصغ إليَّ.
- نعم، ايها السيد، نعم.
- ماهو الصالح؟
- ان تُكسر رقبتي ورقبتك أو نُلقى في النهر، فمن هو الطويل، بما فيه الكفاية، ليصل إلى السموات؟ ومن هو الواسع، بما فيه الكفاية، ليطوق العالم السفلي؟.
- كلا ايها العبد سأقتلك، سأدعك تذهب أولاً.
- اذن أقسمُ، ان سيدي لن يجعلني أعيش حتى لثلاثة أيام.

الهوامش

١ - پارو، أندريه، بلاد آشور، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه، (بغداد، ١٩٨٠)، ص ٢٩٥.

٢ - عبد الواحد، فاضل وسليمان، عامر، عادات وتقاليد الشعوب القديمة. (بغداد، ١٩٧٩)، ص ١٣٩.

٣ - ابراهيم، زكريا، مشكلة الفلسفة، (القاهرة، ب. ت)، ص ١٨٣.

٤ - خليل، خليل أحمد، ، مضمون الاسطورة في الفكر العربي، (بيروت، ١٩٨٠)، ط٢ ، ص ١٧.

٥ - خليل، خليل أحمد، ، مضمون الاسطورة في الفكر العربي، (بيروت، ١٩٨٠)، ط٢ ، ص ١٧٤.

6 - Lambert, W.G. Babylonian Wisdom Literature, (Oxford, 1960), P. 1.

7- Ibid., p. 16.

٨ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب المحيط ، تقديم عبدالله العلايلي، اعداد وتصنيف يوسف خياط،(بيروت، ب. ت)، باب: حور، م١ ، ص ٧٥١.

٩ - الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، (القاهرة، ١٣٠٦هـ)، باب: حور، ط١ ، م٣ ، ص ١٦٢.

١٠ - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، (بيروت، ١٩٧١)، ط١ ، ج١ ، ص ٥٠١.

11- The New Encyclopaedia Brittanica: Micropaedia, "Dialogue", (U. S. A., 1977), 15th ed. Vol. II, 518-419.

١٢ - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، (بيروت، ١٩٧١)، ط١ ، ج١ ، ص ٥٠١.

١٣ - الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، (القاهرة، ١٣٠٦هـ)، باب: جدل، م٧ ، ص ٢٥٤.

14- Lambert, OP. Cit., P.15.

15 - Ibid., P. 17.

16- Ibid., P. 63.

17- Ibid.

18- Ibid., P. 67

19- Ibid., PP. 71-89.

20 - Livingstone, A. (ed.), Court Poetry and Literary Miscellanea, (Helsinky, 1989). PP. 33-35.

٢١ - الأحمد، سامي سعيد، "الادارة ونظام الحكم" ، حضارة العراق، (بغداد، ١٩٨٥)، ج٢ ، ص ١٠.

٢٢ - الأحمد، سامي سعيد، "الادارة ونظام الحكم" ، حضارة العراق، (بغداد، ١٩٨٥)، ج٢ ، ص١١.

٢٣ - عبد الواحد، فاضل، "الأدب"، حضارة العراق، (بغداد، ١٩٨٥)، ج١ ، ص ٣٧١-٣٧٢.

24 - Pritchard, James, B., (Editor), Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, (Princeton, 1969), 3rd ed., P. 601.

25- Ibid.

26- Ibid.

ايضاحات:

- نابو: إله الخط وإبن الإله مردوخ.
- اماشماش: المعبد الذي عبدت فيه الآلهة عشتار في مدينة نينوى.
- اوركيتو: معبد الآلهة عشتار التي عبدت في مدينة أور.
- أكشتكلما: المعبد الذي عبدت فيه الالهة عشتار في ارابيلا.
- موليسو: رفيق الاله آشور.
- بوريلاتو: نوع من الحشرات لم يحدد صنفها.

- The Chicago Assyrian Dictionary, Editoral board I. J. Gelb, B. Landsberger., A.L. Oppenheim and E. Reiner, (Chicago, 1979). 3rd ed., p. 329
  - نهر خُبّرْ : نهر يقع في العالم السفلي.
- The Chicago Dictionary, Op. Cit., vol. 3 P. 219.
  - مامي: الالهة الخالقة.
  - الوجرة: حفرة مغطاة لاصطياد الوحوش.
  - الملت: شعير ينقع بالماء.
  - شمش: إله الشمس اوتو. سماه السومرين اوتو UTO ، والبابليون شمش، وهو إله العدل. مركز عبادته سبار(ابو حبة) وكذلك الحضر.
  -